

بروم من أيام دمشق الخالدة

وفاة الامام ابن تيمية

في ٢٠ ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ

للأستاذ أحمد رمزي بك

تفضل مصر الشام في سورية ولبنان

[بنية ما نشر في العدد الماضي]

— ٣ —

لم يكن ثبات القلعة بدمشق وعودة الجند ليزيلا القلق من النفوس ، فقد أقسم أهل التتار هذه المرة أن يملك الشام ويفتح مصر عتوة ، وملأ الدنيا بإشاعته والناس أشد ما يكونون ذعراً ؛ كل هذا وابن تيمية لا يبالي ، يقعد بمجلسه كالعادة في الجامع يحرض الناس كل يوم على القتال ، ويسوق الآيات والأحاديث الواردة في هذا المعنى ، ويحرم الفرار ويرغب الناس في إنفاق الأموال ، وأن ما ينفق في الهجرة إذا أنفق في سبيل الله كان خيراً اضطرت السلطات إزاء هذه الهجرة نحو مصر والكرك والشوبك أن تمنع الخروج بغير ترخيص خاص ، وكانت الأنباء قد وصلت بوصول التتار إلى الشمال مرة أخرى ، وتراجع جند الممالك الحلبية ، ثم نزلت الأمطار فأعاقت السير إلى الجنوب وإلى الشمال

— ٤ —

كان موقفاً رائماً فذاً في التاريخ أقرأ ونفسي تضطرب حينما أخرج الشيخ في صباح السبت من مستهل جمادى الأولى سنة ٧٠٠ هجرية وقابل نائب الشام بالرج فواجه الجنود وبتهم وقوى جأشهم وطيب قلوبهم ووعدهم بالنصر والظفر على الأعداء وتلا قوله تعالى : « ومن عاقب بمثل ما عوقب به ، ثم بُني عليه ، لينصرنه الله إن الله غفور رحيم »

وبات ليلته وسط المسكر وهم يحبون هذه الروح التي وضعوا آلامهم فيها

أندري ماذا يطلب منه أمير الشام ونائب السلطنة فيها ؟

يطلب إليه أن يركب على البريد إلى مصر ليستحث السلطان على المجيء إليهم . ويسوق الشيخ على خيل البريد إلى القاهرة ، وهو أبنا يحمل يستحث الناس إلى المبادرة

أقام الشيخ في قلعة مصر ثمانية أيام ، وقد اجتمع بالسلطان والوزير وأعيان الدولة فأجابوه إلى الخروج ، وكان فيما قاله لهم : « إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايتها ، أقنأ له سلطاناً يحوطه ويحميه — لو أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم نصره — فكيف وأنتم حكامه وسلطانيته وأنتم مسئولون عنه ؟ »

ثم عاد كما أتى على البريد من مصر ، وقد أدى أمانته ونفخ في النفوس روحاً للكفاح الجديدة

— ٥ —

استمر المد والجزر بين الفريقين والرسل تتوالى إلى أن دخلت سنة ٧٠٢ هجرية ؛ وقد قدم جيش مصر وعلى رأسه الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وزحف التتار من جهتين من الشمال فوصلوا إلى البقاع واحتلوا بعلبك ، ومن الشرق وصلت طلائعهم القريتين . كل هذا والتتار لا يعلمون بقدم السلطان من مصر . ولما وصل دمشق قرر أن يكون المصاف في جنوب دمشق بقرية شقحب ، وأتم التهيئة والحشود ومشى السلطان والخليفة بجانبه ومعهم القراء يثلون القرآن ، ويحثون على الجهاد ، ويشوقون إلى الجنة .

في هذا الموقف المصيب يقوم الطابور الخامس بدعايته فيقول : كيف تحاربون قوماً أسلموا وهم إخوان لكم ؟ وهنا برز الشيخ بقوته ومضاء فكره فألهمه المولى هذه العبارة :

« هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي وعلى معاوية ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما . وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين ويعيبون على الناس ما هم فيه من المأسي والظلم ، ولكنهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضغاف مضاعفة ، والله لو رأيتهم من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني »

فما تم الترتيب أخذت كرايس التتار تحرف كقطع الليل والتجم القتال على طول الجبهة قتالاً هائلاً رائماً يبعث فيه النفوس بغير حساب . كل هذا والجاشنكير يسيطر على المعركة بجند مصر

سفره من القاهرة ، قلقته الخواطر عليه وتآلم أنصاره وخافوا سطوة أعدائه الذين عقدوا النية على النيل منه . وكان الشيخ يحضر الجمعات ويقم الوعظ فيأتي إليه الناس من أهل الإسكندرية أفواجا ينصتون إليه ويقرأون العلم عليه ، وقد ازدادوا تعلقا به ومحبة له وتقربا منه

ووصل إلى دمشق كتاب من أخيه يقول : « ... إن الأخ الكريم قد نزل بالثغر المحروس على نية الرباط فإن أعداء الله قصدوا بذلك أمورا يكيدونه بها . . . وقد انقلب أهل الثغر أجمعون إلى الأخ مقبلين عليه مكرمين له في وقت ينشر من كتاب الله وسنة رسوله ما تقر به أعين المؤمنين ، ولقد استجاب جماعة منهم واستقر عند عامة المؤمنين وخواصهم من أمير وقاض وقيه »

ويقول ابن كثير - وهو من المراجع التي اعتمدا عليها مع غيره - : « إن الشيخ أقام بالإسكندرية ثمانية أشهر ، وكان سكنه في برج متسع مليح نظيف له شباكان أحدهما إلى جهة البحر والآخر إلى جهة المدينة ، وكان ينزل عنده من شاء ويتردد عليه الأكابر والأعيان والفقهاء يقرأون عليه ويستفيدون منه وهو في أطيب عيش وأشرف صدر »

- ٨ -

دارت الأيام دورتها وعاد الملك الناصر إلى عاصمة ملكه بعد زوال حكم أعدائه ، وكان ذلك في عيد الفطر المبارك من سنة ٧٠٩ وقد استقبلته في القاهرة ، وقبل ذلك بدمشق ، دنيا من الأفراح إذ استبشرت العاصمتان بمودة ابن فلاوون إلى ملكه وحيته الجاهير وهتفت له ذلك الحثاف المحبوب : « يا ناصر يا منصور » . ولم ينس الملك الشاب في أفراحه الشيخ المجاهد ابن تيمية فأرسل إليه وحضر إلى القلعة معززا مكرما مبجلا . وكان قدومه في ١٨ شوال ، وقد خرج مع الشيخ خلق عظيم من الثغر الإسكندري يودعون بالبكاء لتركة مدينتهم . ولما دخل على الناصر تلقاه ومشى إليه وأنس به في محفل كبير جمع قضاة مصر والشام فأصلح السلطان بينه وبينهم . ونزل الشيخ إلى القاهرة وسكن بالقرب من المشهد الحسيني والناس يترددون عليه من الأشراف والجند وهو يقول لكل من يعتذر إليه : « أنا حلت كل من آذاني » ؛ وجدد الشيخ سابق عهده بدمشق ولكن بمدينة القاهرة المزينة - قلب المروية - فأخذ يقيم حلقات الدروس وبدأ حياة كفاح وجهاد في سبيل العلم

والشام . وهنا مال قتلوشاه القائد التتري إلى جبل قريب ونظر إلى السهل والجبال المحيطة فإذا الليسرة السلطانية ثابتة لا تتزعزع ، والأعلام خافقة . وحجى إليه بأحد الأسرى فسأله من أنت ؟ فقال من أمراء مصر . فعلم بأنه قد خسر المعركة .

معركة فاصلة دامت أربعة أيام أظهرت فن القيادة والتعبئة لدى القواد المصريين والشوام ، واختتمت بالنصر الباهر الذي نفخ فيه ابن تيمية من روحه .

وقبل اختتامها حاول قتلوشاه للمرة الأخيرة أن يجازف فقذف بما بقي لديه من جنده فرسانا ومشاة . وقد ترجل الخيالة فلقينهم المماليك السلطانية من البرجية بسور من الفولاذ مزقه شر ممزق وحلت بهم الهزيمة فانتشروا منهزمين إلى القريتين وقد تبعهم العامة وتقهقر قائدهم عائداً إلى بلاده فلم يعبر الفرات إلا في شردمة قليلة من هذا الجيش اللجب الذي عبأ لفتح مصر والشام .

وبات السلطان بالكسوة ثم دخل دمشق وقد فتحت قلبها وتلقته لقاء الأبطال بعد أن أزال الهم والنعمة عنها .

وفي مكان للمعركة وبغير غسل ولا كفن جمع من استشهد من أبطالها فدفنوا في موضع واحد وبنيت عليهم قبة أرجوان تكون باقية إلى اليوم .

وكان الشيخ أول من فرح قلبه لهذا النصر المبين .

- ٩ -

مرت ابتداء من سنة ٧٠٥ سنوات كفاح للشيخ من أجل المبدأ يقارع الأيام وتقارعه ، وتغمره موجة من الدسائس فيخرج منها سالماً ، وتمتد المجالس لامتحان عقيدته فيخرج من هذه المقامرات أحياناً إلى الحرية وحيثاً إلى السجن . وطلب إلى مصر ، فلما أزمع السفر ازدحم الناس لوداعه . وفي إبان سفره لم يترك فرصة تمر دون أن يقف واعظاً للناس . ولما وصل القاهرة واجتمع له العلماء واختلف معهم أدخل في أحد أبراج القلعة وبقي بها محبوباً . وكلما نجحت محاولة لإخراجه أبي إلا أن يبقى ، والناس تقصده وترسل إليه المشكل من الأمور لاستفتائه فيه

- ١٠ -

انتقل ابن تيمية إلى الثغر الإسكندري في صفر سنة ٨٠٩ بصحبة أمير من الأشراف فأدخل في دار السلطان وأُنزل في برج فسيح منها . ووصلت أخباره إلى دمشق بعد عشرة أيام من